﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ عـذاب السَّماء إلى ذِكْرِ جَمالِها وبَهائها

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ عذابَ اللّهِ تَعالى المتمثِّلَ في الخَسْف وإرسالِ الحاصب من السَّماء، ونبَّهت على ذلك بما كان للأمم السّابقةِ المكذّبةِ؛ ناسَب الانتقالُ إلى ضرْبِ مثالٍ بديعٍ من عالَم العَجْماوات، وهو الطَّيرُ في طَيَرانِها؛ ليدُلَّ على عظيمِ قُدرته ﷻ، فكما يُمسك الطَّيرَ في جوِّ السَّماء بلا دِعامةٍ ولا سَنَدٍ، ولولاه سبحانه؛ لَما بقيَ طيرٌ في السَّماء، فكذلك هو الَّذي يُمسكُ السَّماواتِ أن تقعَ على الأرْضِ، فالأصلُ سقوطُ السَّماواتِ وخسفُ الأرض، فرَفْعُ العذابِ عن الأرضِ ليس فَقَط بعدمِ إرسالِهِ، بل بمَنْعِ وقوعه، فهذا أعظمُ في الامتنان، وأقوى في الاستدلال، وهو كذلك انتقالٌ من التَّهديد ممّا ينزل من السَّماء، إلى الاستدلال بما هو مُشاهَدٌ فيها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: الصَّفُّ: السَّطْر المُسْتَوي من كلِّ شيء، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ في شَيءٍ، يُقال: صَفَفْت القومَ: أقَمْتُهم في الحرب صفًّا[1]، وصَفّت الطَّيرُ في السَّماء: بسطَتْ أجنحَتَها، ولم تُحَرِّكْها، فمعنى صافّات: باسطاتٌ أجنحَتَها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صـفُّ الـطَّـير في السَّماء من أدلَّة الـقُـدرةِ الإلهيَّة عـلى الـرِّعـايـة الرَّبّانيَّة

ينتقلُ الخطابُ الإلهيُّ من التَّهديد والإنذار إلى الدَّعوة للتَّفكُّر والتَّأمُّل، فيسألهم: أوَلَم ينظُرْ هؤلاء المشركون المكذّبون إلى الطَّير،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صفف).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 287.

وهي تعلو في السَّماء، باسطةً أجنحتَها حينًا، وتضمّها أحيانًا أخرى؟ وما الَّذي يمنَعُها من السُّقوط إلّا حفظُ الرَّحمن ورعايتُه، فهو سُبحانه المحيطُ عِلْمًا وبصرًا بِكُلِّ شيءٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الاستفهامِ ودلالَتُه:

الإنكارُ على المُشْرِكين عدمَ رُؤْيَةِ الواضِحاتِ وتوبيخُهم على رَفْضِ التَّفكير السَّليم

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ جاء بأسلوب الاستفهام، وغرضُهُ الإنكارُ والتَّوبيخُ؛ إذْ يُنْكِرُ اللّهُ تعالى على هؤلاء المكذِّبين إعراضَهُم عن النَّظر في هذا المشهَدِ العَجيب، مشهدِ الطَّير في طيرانها باسطةً أجنحتَها أو قابِضَتَها، دون أن تَسْقُط[2]، فالهمزة لإنكار غفلتِهم، فنزَّلهم الاستفهامُ منزلةَ مَن لم يرَ هذه الظّاهرة قَطُّ؛ لأنَّهم لم يعتبروا بها، ولم يستدلّوا بها على قُدرةِ اللّه تَعالى وانفرادِهِ بالألوهيَّة[3].

تعيينُ المعطوف عليهِ بالواو:

المعطوفُ عليهِ إمّا مقدّرٌ من السّياق وإمّا مذكورٌ فيهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، إمّا أن تكون عطفًا على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، وذلك على سبيل الاسترسال في سَوق الأدلّة على انفراد اللّه تعالى بالخَلْقِ والتَّدبير، فكما أنَّ تذليل الأرض لهُم آيةٌ واضحةٌ على قُدْرَتِه تعالى، فإنَّ تمكُّن الطَّير من الطّيران في الجوِّ دون أن تَسْقُطَ دليلٌ آخرُ لا يقلُّ عجبًا وإحكامًا[4].

وإمّا أن تكون الواوُ عطفًا على محذوفٍ مقدَّرٍ، تقديره: أغَفَلوا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 217، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 227، 228، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 313، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 157.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37.

عن أدلَّةِ التَّوحيد، ولم يَنْظُروا، فلم يتفكَّروا، ولم يعتبروا، ولم يوجِّهوا أنظارَهم إلى الطّير[1]؟.

نكتةُ التَّعبير بالفعل المُضارع المنفيِّ:

الحثُّ على النَّظر والاعتبارِ المُسْتَمِرَّين

جاء التَّعبيرُ بالفعل المُضارع المنفيِّ بـ (لم) في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ ليدلّ على إنكارٍ مُتجدِّدٍ مُستمرٍّ، وحثٍّ دائم على النَّظر والاعتبار بقُدْرةِ اللّهِ تَعالى في خَلْقِ الطَّير وتسْخيرِها في الفضاء.

دلالَةُ استِعمالِ حرفِ ﴿إِلَى﴾:

أدواتُ التَّفكير في الكَوْنِ المَنْشورِ أقرَبُ للمُشْرِكين مِنَ الوَهْمِ المأفونِ

جاء فعل ﴿يَرَوْا﴾ متعدّيًا بالحرف ﴿إِلَى﴾؛ ليُفيد انتهاءَ الرُّؤيةِ الحسّيَّةِ البصريَّةِ إلى الطّير المشاهَد في جوِّ السَّماء؛ إذْ إنَّهم يُعاينون الطَّير فوقَهُم صفوفًا وجماعاتٍ ناشراتٍ أجنحتَهنَّ ثُمَّ قابضاتٍ، ومع ذلك لم يَعْتَبِروا بهذه الآية الباهرةِ الدّالّة على وحدانيَّة اللّه تَعالى وقُدْرَته[2].

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلطَّيْرِ﴾:

الطَّيرُ في جوِّ السَّماء آيةٌ تَلْفِتُ الأنظار، وتَخْطِفُ الأفكارَ

جاء لفظ ﴿ٱلطَّيْرِ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)؛ للدّلالة على الجِنْسِ، أي: ليشمَلَ كُلَّ ما له جناحٌ يَسْبَحُ في الهواء بالصّفات المذكورة في الآية، فهو ليس لطائفةٍ بعَيْنِها ولا نوعٍ مخصوص، بل هو استحضارٌ لصورةِ هذا الخَلْقِ العجيب بجُملته، والتَّعريف هنا يُفيد الاستغراق؛ ليَلْفِتَ الأنظارَ إلى كَثْرةِ هذا الجنس وتنوُّع أنواعه، ممّا يزيد في قوَّة الدّلالة على القُدْرةِ الإلهيَّة الباهرة[3].

دلالَةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة:

توبيخُ المُعْرِضين عَلى عَدَمِ ملاحظة مَشاهِد المَخْلوقين

كلمة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يَحْتَمِل أن تكون ظرفًا مُتعلِّقًا بالفعل ﴿يَرَوْا﴾، وأن تكون حالًا من ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، أي: في حال كونها مُحلِّقةً فوقَهُم صافّاتٍ

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 25، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 242.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 91.
(3) العُليميّ، فتح الرَّحمن: 7/ 115، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 91، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 39.

أجنحَتَها[1]، والأوْلى: جَعْلُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرفًا مُستقرًّا، و﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حالًا من الضَّمير في ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ لأنَّ المقصود ليس مُطلق رؤية الطُّيور، بل هوَ توبيخهم على إعراضهم عَن ملاحظة تلك الهيئة العجيبة، فجاء التَّعبيرُ أوَّلًا بالإجمال، ثُمَّ فُصِّل بعده؛ ليكون ذلك أرسَخَ في الذِّهن وأبلغَ في التَّصوير[2].

بلاغَةُ تَقْديمِ الظَّرف على الحالِ:

العِنايَةُ بالغاياتِ مقدَّمٌ على العنايةِ بذِكْرِ الوَسائلِ

قُدِّم ذِكْرُ الظَّرف ﴿فَوْقَهُمْ﴾ على الحال ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، فلم يأتِ البيانُ القرآنيُّ: (إلى الطّير صافّاتٍ فوقهم)؛ لإبراز عُلوِّ الطّير عليهم في الجوّ؛ إذ هذا أوقَعُ في نفوسهم، فجاء تقديمُ الظَّرف؛ لإفادة العناية بهذا المعنى وتخصيصِه بالاهتمام قبل الانتقال إلى وصف هيئتِهِ ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ فدلَّ على أنَّ المقام لذِكْرِ طيرانٍ مخصوصٍ في حالٍ مخصوصةٍ، وهو علوُّها عليهم[3].

بلاغةُ استِعمالِ مفردة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ مادَّة وصيغةً:

صفُّ الأجنحة في السَّماء جامعٌ بَيْن جمالِ الصَّنعةِ وضرورةِ الاستدلالِ

لفظة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ جاءت على وزن اسْمِ الفاعل من مادّة الصَّفّ الَّتي تدلُّ على التَّقارب والانتظام في نسَقٍ واحدٍ، والمقصودُ بها هنا: أنَّ الطَّير تبسُط أجنحتَها في حال الطَّيران، فيبدو ريشُها مصطفًّا متراصًّا؛ إذ ليس ممّا تصفّه الطّيور سوى ريش أجنحتِها، فحين يمدُّ الطّائرُ جناحَيْهِ أثناء التَّحليق، ينتظمُ ريشُ الجناحَيْنِ في صفٍّ بديعٍ، فكأنَّ الفعل ذاتَه – وهو البسط – أخرجَ هذه الصّورة الاصطفافيّة، ولهذا وُصِفَت الطُّيور بكونِها ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، وأيضًا فإنّ بَسْطَ الجناحين هو سرُّ تمكُّنها من الطَّيران، تمامًا كما يمدُّ السّابح ذراعَيْهِ في الماء؛

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 39.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 206.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 206.

ليَشُقَّ طريقَهُ فيه[1]، وصيغَة اسم الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ توحي بالفعل المستمرّ المتجدِّد، فجاء التَّعبير بصافّات؛ ليجمعَ بين إظهار الصَّنعة البديعة في خَلْقِ الأجنحة وريشِها، وبَيْنَ الإشارة إلى فعل الطَّيران نفسِه الَّذي لا يكون إلّا بهذا البَسْطِ المنظَّم.

بلاغَةُ عَطْفِ الفِعْلِ على الاسمِ:

الاتِّساقُ بين الفِعْلِ وما فيهِ روحُ الفِعْلِ في الدَّلالة على الحدَثِ

عطْفُ فعلِ (يَقْبِضْنَ) على ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ من عطْفِ الفعلِ على الاسمِ الشَّبيهِ بالفعلِ في الاشتقاقِ؛ لأنَّه بمعناه، أي: وقابضاتٍ، فالفعل هنا مُؤَوَّلٌ بالاسم، مفيدٌ الاتِّصافَ بحُدوثِ المصدَرِ في فاعِلِه، فلم يَفُتْ بعَطْفِه تَماثُلُ المعْطوفينِ في الاسميَّةِ والفعليةِ الذي هو من مُحسِّناتِ الوصْلِ[2].

نُكتَةُ التَّعبير بالاسمِ للصَّفِّ والفعلِ للقَبْضِ:

امتيازُ الصَّفِّ بالثَّباتِ، فناسبَهُ الاسْمُ، والقبضِ بالتَّجدُّدِ فناسبَهُ الفِعْلُ

عُطِفَ فِعْلُ (يَقْبِضْنَ) على الاسم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، فالطّيور تبسُطُ أجنحتَها وتقبِضُها، وقد آثر النّظمُ التَّعبيرَ باسم الفاعل الدّالِّ على الثُّبوت والاستمرار لقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الصَّفَّ هو الأصلُ في الطَّيران؛ إذ يُشْبِهُ الطَّيرانُ في الهواءِ السِّباحةَ في الماء، وأساسُ السِّباحة بسطُ الأطرافِ، وأمّا القبض؛ فهو أمرٌ عارض يُستعانُ به على الحركة، فناسَب الإتيان به بالفعل الدّال على التَّجدُّد والحدوث؛ للدَّلالة على أنَّ الطَّيرَ في حالِ التَّحليق هي صافّاتٌ غالبًا، قابضاتٌ أحيانًا، كما يَفْعَلُ السّابح في الماءِ[3].

التَّقابُلُ بينَ دلالةِ الفِعْلِ ودلالَةِ الاسْمِ:

الدَّلالةُ على أنَّ هذا القَبْضَ يتكرَّر آنًا بعدَ آنٍ

الفعل المُضارع في الأصل يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، لكنّه في فعل (يقبضن) قد دلَّ على أنَّ هذا القبض يتكرَّر آنًا بعد آنٍ؛

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 227، 228، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 593، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37، 38.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 581.

إذ تضمّ الطّيورُ أجنِحَتَها بين الحين والآخر للاستعانة بها على الحركةِ، فالطَّير إذا قبَضَ جناحَيْهِ؛ لا يسقُطُ رغم ثِقَل جسمِه وجاذبيَّة الأرض، وإنَّما يبقى مُعَلَّقًا في الفضاء، وذلك لا يكون إلّا بقُدْرةِ اللّهِ تَعالى المُمْسِكِ له[1]، والتَّعبير بالمضارع يدلّ على التَّقابُلِ الدّلاليِّ مع قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾، فدلَّ على أنَّ للطّير في جوِّ السماء حالَيْنِ مُتناوِبَتَيْن، وهما حالُ الصّفِّ الَّذي يَفْرِدُ الطّير جناحَيْهِ فيها، وحالُ قبضِ الأجنحة للارتفاع والتَّبديل بين الأماكِنِ.

بلاغَةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

حَـذْفُ المعلومِ مِـن الـسّـيـاق سياسةُ النَّظْمِ في الإيجاز ما لم يَخْلُ مِن نُكْتَةٍ

حُذِفَ متعلِّق كلٍّ من ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ و(يَقبِضن)، فالفِعْلُ أو الوصفُ المُشْتَقُّ لا بُدَّ له من مُتعلَّقٍ، وتقديرُ المحذوفِ: صافّات أجنحتَهنّ، ويَقْبِضْنَها، فحُذِفَ المفعولُ به اعتمادًا على وضوحه من السّياق؛ إذ إنَّ الصَّفّ والقبض لا يكونان إلّا للأجنحة، وهذا الحذفُ أبلغُ؛ لأنَّه يجعَلُ الذِّهنَ يتوجَّه مُباشرةً إلى المَشْهَدِ، فيرى صورةَ الطَّير، وهي تَبْسُط جناحَيْها، ثُمَّ تَضُمُّهما في حركةٍ مُتواصلة، كما أنَّ الجَمْعَ بَيْنَ الصِّفتين - صفِّ الأجنحة وقبضِها - مِمّا يزيد في الإعجازِ والاعتبار بقُدرة اللّهِ تعالى المُمسكِ لها في الهَواء[2].

بلاغَةُ الإطْنابِ:

إثـارَةُ الانتباهِ إلـى دقـائـقَ حاضِرَةٍ يغفُلُ عنها الإنسانُ بـتَـصَـرُّفـات فاضحَةٍ

جاء التَّذكير بعجيبِ خَلْقِ الطَّير في حالِ طَيرانِها مُتضمِّنًا لونًا مِنَ الإطناب؛ إذْ إنَّ الأوصافَ الثَّلاثة الواردةَ في قوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقْبِضْنَۚ﴾ إطنابٌ في الوصف لِما هو معلومٌ بالبديهةِ، ولكنّها قَد رَسَمَت للسّامع صورةً دقيقة لحركات الطَّيران، بما يُثير الانتباهَ إلى دقائقَ قَد يغفُلُ عنها الإنسانُ رغم نشأتِه بَيْنَ هذه المَظاهر مُنذ صِغَرِه حين كان إدراكهُ قاصرًا، وكم مِن دقائقَ في المَخْلوقاتِ مِن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 10/ 391، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

حَيوانٍ أو جَماد يغفُل عنها النّاظر، ولو تأمَّلها حَقَّ التَّأمُّل؛ لتجلَّى له مِن العجائب ما يملأ الأسفارَ وصفًا وإعجازًا[1].

علّة فَصْلِ جُمْلَةِ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾:

البَيانُ والتَّفسير مِن مُقْتَضياتِ كمالِ الاتِّصال المُفْضي إلى الفَصْلِ

جملة: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ جاءت مفسِّرةً لقولهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾، وما تضمَّنته من إنكارٍ على غَفْلَتِهم، أي: كان الأجدر بهم أن يُدركوا أنَّ الَّذي يمنع الطّير من السّقوط هو الرَّحمنُ وحده؛ إذْ لا يَمْلِكون أن يُشيروا إلى مُمسكٍ غيره، وفي ذلك إشارةٌ دقيقةٌ إلى أنَّ القادر على إمساكِ الطَّير في الجوِّ هو نفسُه الَّذي أهلك الأمم السّابقة حين كفروا، وأنَّه لو أطاعوه، ولم يُشركوا به؛ لكانَ حَفِظهم مِنَ الهلاك، كما يحفظُ الطَّيرَ من الهويِّ، ويَحْتَمِلُ أن تكون الجُملة مُستأنفةً أو حالًا من الضَّمير في (يقبضنَ)[2].

دلالَةُ النَّفي بالأداةِ ﴿مَا﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمال الأداة ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لنَفْيِ ما يكون في الحالِ والاستقبال نفيًا عامًا؛ لا لنفي ما يكونُ في الاستقبالِ فحسْبُ.

بلاغَةُ القصر بأسلوبِ النَّفي والاستثناءِ:

التّخليَةُ مقدَّمَةٌ على التّحليةِ

جاء النَّفيُ بـ ﴿مَا﴾ مع أداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لإفادة القَصْرِ الحقيقيِّ، أي: حصْرُ فعلِ الإمساك والقدرة على إبقاءِ الطَّير محلِّقة في السَّماء باللّه تعالى وحده دون سواه، فالآية تنفي كُلَّ قوّةٍ أو سببٍ مستقلٍّ يُمْكِنُ أن يتوهَّمه الذِّهن، وتثبتُ أنَّ ما يراه النّاسُ مِن بقاء الطَّير في الجوِّ ليس إلّا أثرًا مِن آثارِ قُدْرَةِ الرَّحمن، وفي هذا تأكيدٌ لوحدانيَّة الخالقِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

وربوبيَّته المُطلقة[1]، والقَصْرُ بالنَّفي والاستثناءِ لنَفْيِ أيِّ ظنٍّ موهومٍ في أنَّ لأحدٍ القدرةَ على ذلك ابتداءً، ثُمَّ إثباته للّه تعالى وحدَه.

بلاغَةُ استِعمال مفردة ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾ دلالةً وصيغةً:

حِفْظُ اللهِ تَعالى لخلقه ثابتٌ في خصائصِه متجدِّدٌ في ظاهرِه

آثر النّظم الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾؛ لإبراز فعل الحِفْظِ والإمساك المُتجدِّد في كُلِّ لحظة يحفَظُها الطّير من السُّقوط، ومعنى هذا الإمساك أنَّ اللّه تعالى أوْدَعَ في خِلقة الطَّير خصائِصَ دقيقةً تَجْعَلُها صالحةً للتَّحليق من خِفَّة عظامها، وقوَّة حركة أجنحَتِها، فجميعُ هذه الخصائصِ ليست إلّا أثرًا من آثار إمساكِ الرَّحمن، الَّذي جَعَلَها سببًا في بقائها معلَّقةً في الفضاءِ دون أن تَهْوي، ولولا بديعُ الصُّنع؛ لَما بَقيَ طيرٌ في جوِّ السَّماء[2].

نُكْتَةُ إيثار اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾:

رحمةُ اللهِ تَعالى وسِعَتْ جميعَ المخلوقاتِ، وشَمِلَتْ كلَّ الكائناتِ

آثَر النَّظم الكريمُ استعمالَ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ دون الاسم الأحسَنِ (اللّه)، وذلك لأمرٍ يخصُّ سياق الآية، وآخرَ يخُصُّ سياق السّورة، فذِكْرُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ أنسَبُ لسياق الامتنان؛ إذ ما أودعَهُ اللّه تَعالى في الطَّير من خصائصِ البَسْطِ والقبض، وما هيَّأ لها مِن قدرةٍ على الرَّفرفة في الجَوِّ وتسخير الهواء لحركتها، كُلُّ ذلك مَظهرٌ من مظاهر رحمته ولُطفه بخَلْقِه، فجاء التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾؛ ليَلْفِتَ إلى أنَّ هذه القُدرةَ المعجزةَ إنَّما هي أثرٌ مِن آثار رحمتِه الواسعة، الَّتي تشمل الطَّير والإنسانَ وسائرَ المخلوقات، وأمّا ما يخصُّ سياق السّورة؛ فقد جاء تَكرارُه في السّورة أربع مَرّات؛ لتثبيتِ معناهُ في أذهان المُشْرِكين[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 263، وحاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاويّ: 8/ 282.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ:

لكلِّ انتقاءٍ مناسبةٌ في السّياق الخاصِّ والعامِّ

قال تعالى في سورة النَّحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل: 79]، وقال في سورة المُلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾، والمُتأمِّل في الآيتين يَجِدُ أنَّ مقصودَهما واحدٌ، وهو لَفْتُ النَّظر إلى عظيم قُدرة الله تعالى وحكمته في تسخير الطَّير وتمكينِه من التَّحليق في جَوِّ السَّماء، ففي سورة النَّحل جاء التَّعبير بـ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل: 79]؛ لأنَّ الآية لم تتعرَّض إلّا لبيان تسخير الطَّير في الجوِّ، دون تفصيلٍ لحَركاتِه وهيئاته، فناسبهُ ذِكْرُ الاسمِ العلَمِ الدّالِّ على الذّات الإلهيَّة في مقام القُدرة والتَّسخير العامِّ.

أمّا في سورة المُلك؛ فقد ذُكِرَ للطَّير حالانِ: صافّات ويقبضن، أي: حال البَسْطِ وحال القبض، وهما حالانِ فيهما راحَةٌ ورحمَةٌ بالطّائر؛ إذ يَجِدُ بها توازنًا في الطَّيران كما يجِدُ السّابحُ راحتَه في بَسْطِ يدَيْهِ وضمِّهما، فناسَب هذا المقامُ ذِكْرَ اسْمِ الرَّحمن الدّالِّ على الرَّحمة والإنعام مع ما ذُكِرَ مِن مظاهِر رَحْمَتِه ولُطْفِه بخَلْقِه في الآياتِ السّابقة[1].

بلاغَةُ التَّوكيدِ ودلالَتُه:

الجُملة تَعليلٌ لمَضمونِ ما سَبَقَ

التَّوكيدُ بـ (إنّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ جاء تعليلًا لما سبقَ مِن قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾؛ إذ لا يخفى عليه ﷻ من دقائقِ خَلْقِها وهيئاتها شيءٌ، وهو الَّذي أتقَنَ تسخيرَها للطَّيران، وحَفِظَها مِنَ السُّقوط[2].

دلالَةُ تَنْكيرِ لفظِ ﴿شَيْءٍ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعالى محيطٌ بمخلوقاتِهِ كلِّها

دلَّ لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ على

(1) ابن الزُّبير الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 2/ 305 - 306.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

العُموم والشُّمول، أي: إنّ بَصَرَهُ سُبحانه يشمَلُ كُلَّ ما يُتصوَّر وجودُهُ، قليلًا كان أو كثيرًا، حقيرًا أو عظيمًا، خفيًّا أو ظاهرًا[1].

نكتَةُ تنكير لفظ ﴿بَصِيرٌ﴾:

تعظيمُ صِفَةِ البصير وأثرُها في رعايةِ الخَلْقِ

نُكِّر لفظ ﴿بَصِيرٌ﴾ لإرادةِ التَّعظيم، أي: إنّ بصَرَهُ تعالى بصرٌ عظيمٌ لا يَحُدُّه حدٌّ، ولا يغيب عنه شيءٌ، صغيرًا كان أو كبيرًا، جليًّا أو خفيًّا[2].

وقد دلَّت صيغة (فعيل) على المُبالغة والثُّبوت، فهو سُبحانه بالِغُ البَصَر، يرى أدقَّ الجزئيّات وأخفى الخفيّات، لا يحجبه ظاهرٌ عَن باطنٍ، ولا قريبٌ عن بعيدٍ، والبصر هُنا صفة زائدةٌ على مُطلَق العِلم؛ ليدلّ على شُمول قدرته في الإحاطة بالمُبصَرات على أكمَلِ وجْهٍ[3].

بلاغَةُ الكِنايَةِ:

دوامُ مُراقبَةِ العَبْدِ لربِّه تَعالى دليلُ إيمانٍ وحُسْنِ إيقانٍ

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ كناية عن رقابةِ الله تعالى لعباده، وإحاطةِ علمِه بهم، ما يُفيد لزومَ المُراقبة الباطنة؛ إذْ مَن أيقَنَ أنَّ اللّهَ تَعالى مطّلعٌ على كُلِّ شيء لم يغفُل عن مُحاسبة نفسِه، فكانت الكنايةُ هُنا عن دوامِ مُراقبة العبد لربِّه ومحاسبته لنفسِه بدقَّة، وهي ثمرةٌ مِن ثَمراتِ الإيمانِ الحقِّ[4].

فائدَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ على المُسْنَد:

الرَّدُّ على مَن زَعَمَ أنَّ الله تَعالى لا يُحيط بكلِّ شيء عِلْمًا

قُدِّم ذكرُ شبه الجملة ﴿بِكُلِّ شَيْءٍۭ﴾ على متعلَّقها ﴿بَصِيرٌ﴾؛ لإفادةِ معنى القصر الإضافيِّ، وهو قصرُ قلبٍ؛ ردًّا على مَن زَعَم أنَّ اللّه تَعالى لا يُحيط بكلِّ شيء عِلْمًا، فجاء التَّقديم ردًّا على مقالتِهم حين قال بعضُهم لبعضٍ: (أسِرّوا قولَكم لئلّا يسمعَكم الإلهُ)، فأثبت سُبحانه أنَّه محيطٌ بدقائق الأمور وجليلِها، لا يخفى عليهِ شيءٌ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 253.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 254.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 40.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 40.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّظر والبَصَرُ والرُّؤية:

الإبصارُ يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ

بين هذه الأوصافِ الثَّلاثَةِ - في حقِّ المخلوق - فروقٌ، فالنَّظَرُ: عبارةٌ عن تقليبِ العَيْنِ نحو المرئيِّ التماسًا لرؤيته، فهو طلبُ ظُهور الشَّيء، ويكون النّاظر الطّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكه من جهة حاسَّة بصره أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلب من جهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[1]، والرُّؤية هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قَد يَنْظُر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤية من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب[2]، فالفرقُ بينهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبصَر نحو المرئيِّ.

أمّا البصرُ؛ فهو إدراكُ العين، ويُطلَق على القوَّة الباصرة، الَّتي من شأنِها إدراك أشباح الصّور[3]، والعَيْنُ هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلَق البصر؛ ليدلَّ على العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيانٍ، فهو بصير به[4]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرق بين النَّظر والبصر كالفرق بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

(1) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(3) الكفويُّ، الكليّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/ 938.
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/ 544.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"